العرب
الثلاثاء 2020/04/14
السنة 42 العدد 11677

العمل أم العزل.. البشرية في مواجهة مصيرها

فاروق يوسف
كاتب عراقي

"سيعود الفايروس بطريقة قاتلة في حال رفع العزل"، ذلك ما تقوله منظمة الصحة الدولية. ولكن البشرية في حاجة إلى أن تعمل.

عدّاد الموتى يشير إلى ما يزيد عن مئة ألف هم ضحايا كورونا، غير أن عداد العاطلين عن العمل يشير إلى ملايين صارت تمشي مسرعة في اتجاه الفقر والعوز بل والجوع.

هلع كورونا لم يسبقه هلع شبيه. الحروب مهما عظمت كانت محصورة بحدود واضحة. حرب كورونا ليست كذلك. العالم بالنسبة إليها مفتوح الحدود أو من غير حدود.

سيكون علينا أن نقارن بين موتين؛ الموت بكورونا والذي يمكن أن لا يقع، والموت من الجوع الذي يقع بطريقة مؤكدة

اتحدت البشرية كلها بغض النظر عن أنظمتها السياسية في مصير واحد. صارت قوة الدولة تتجسد في قدرتها على حماية مواطنيها. ذلك ميزان عادل. غير أن تلك الحماية قد انطوت على تقييد للحريات التي هي جوهر الحياة. ولكن الحياة نفسها صارت مهددة. دائرة مغلقة هي إذن.

هناك مَن يفكر بطريقة مختلفة. لقد توقفت الدورة الاقتصادية عن العمل الكامل. لا أحد يصرح بالخسائر المادية خشية الإحراج في هذه الأوقات العصيبة التي تمر بها البشرية. أرقام الموتى صادمة. أن تفقد بريطانيا ألف شخص في يوم واحد، تلك مأساة عظمى تهون أمامها الخسائر المادية. ذلك ما يجب أن يُقال مراعاة للشرط الإنساني. غير أن التفكير الرأسمالي لا يستوي مع ذلك الشرط. وهو ما سنتعرف عليه في مرحلة ما بعد كورونا.

بين حين وآخر تظهر أرقام بمليارات الدولارات هي خسائر الشركات عابرة الحدود التي استجابت لأوامر الدول وأوقفت عملها مضطرة، غير أنها لا تصرح بحقيقة الوضع الإنساني الذي نتج عن ذلك الإغلاق. في حقيقة الأمر هناك حطام بشري يقع في جانب معتّم عليه. لم يسمع أحد بحشود الهنود المحرومين من العودة إلى ديارهم بسبب إغلاق الحدود بين الولايات وهم الذين فقدوا مصادر رزقهم بعد أن أغلقت المصانع العالمية أبوابها. ذلك مثال حي على الفجيعة.

لا أعتقد أن قرار العزل الصحي بالطريقة التي نفذ من خلالها كان قرارا صائبا. كان من الممكن أن يطبق مبدأ التباعد الاجتماعي دون اللجوء إلى غلق المصانع وهو ما فعلته السويد ونجحت فيه.

تعرضت السويد للوم من ناحية، ومن ناحية أخرى ندمت الدنمرك لأنها لم تفعل ما فعلته السويد. هناك حيرة لم تظهر بعد ملامحها الواقعية. غير أن الخوف يظل مثل خيط رفيع يفصل بين الجانبين.

ربما كان تصريح الرئيس الأميركي دونالد ترامب هو الأكثر تعبيرا عن الواقع. لقد اعتبر العودة إلى الحياة الطبيعية أصعب قرار يتخذه في رئاسته. ما تفكر فيه دول العالم الصناعي لا يصلح مقياسا للتفكير في الدول المتخلفة.

سيكون علينا أن نقارن بين موتين؛ الموت بكورونا والذي يمكن أن لا يقع، والموت من الجوع الذي يقع بطريقة مؤكدة. لقد جرت حماية الجنس البشري بطريقة لم تأخذ بالاعتبار ما يمكن أن يحدث في البلدان التي لا يتمتع مواطنوها بحق الحماية. كانت الفوضى مفاجأة ولم يكن هناك تنسيق بين الدول في ذلك الوقت الضيق الذي ارتكبت فيه أخطاء بشعة دفع ثمنها الضعفاء.

عالم ما بعد كورونا سيكون كئيبا. تلك فكرة يُعنى بها الأغنياء. أما الفقراء فقد دفعوا الثمن في وقت قياسي. ففي دول كثيرة حرم منع التجوال فئات كثيرة من مصادر رزقها. سيُقال بترف إن على تلك الفئات أن تنتظر. ولكن الحقيقة ليست كذلك. تلك الفئات تعمل لتغطي حاجتها إلى البقاء بشكل يومي. ليست هناك قوانين تضمن لها ما يغطي حاجاتها اليومية في العيش.

فضحت كورونا المسافة التي تفصل بين عالمين. غير أنها في الوقت نفسه كشفت عن غباء الأنظمة الرثة التي تحكم الدول المتخلفة. تلك الأنظمة لم تتعامل بما يتسق مع طرق العيش التي تتبعها الشعوب التي تحكمها. وهو نهج لم يمنع كورونا من الانتشار إضافة إلى أنه ألحق ضررا كبيرا بالفئات الضعيفة.

شباب مصراتة والنافخون في كور المحرقة

الحبيب الأسود
كاتب تونسي

لا يكاد يمر يوم دون نصب سرادق العزاء في مدينة مصراتة الليبية، وكثيرا ما يلفظ العشرات أنفاسهم خلال أسبوع واحد، أغلبهم من الشباب الذي لا يزال في مقتبل العمر، وحتى من المراهقين، بينما يفقد آخرون أعضاء من أجسادهم، ويتحولون إلى مُقعدين عاجزين في زوايا بيوت حزينة.

ومع ذلك لا تكفّ أبواق المدينة عن تحريض من تبقى من الشباب على الخروج من منازلهم للالتحاق بجبهات القتال، سواء باسم الدين أو الوطنية أو الثورية، فيندفع المغرر بهم لحمل السلاح، مدفوعين بشعارات واهية ليعودوا جثثا هامدة، تسيل لها دموع أم ثكلى وأب مكلوم، أو أجسادا خربها الرصاص لتُرمى في مستشفيات الداخل والخارج.

منذ العام 2011 ومصراتة ضحية لرموزها من العنصريين الجهويين، أو الإخوان المتأسلمين، أو رجال الأعمال الفاسدين، ولكل فئة من هؤلاء حساباتها ومصالحها التي يدفع ثمنها البسطاء والفقراء والحالمون، والراكضون خلف أوهام تتراوح بين خلافة مزعومة ينظّر لها الإخوان وأتباع رجب طيب أردوغان، وسيطرة مطلقة على مقدرات البلاد يطمح إليها جهويون لا يرون مدينة أخرى قادرة على إنجاب من يحكم ليبيا سوى مدينتهم، ورجال أعمال لم يتركوا مرحلة من تاريخ البلاد إلا استغلوها لخدمة مصالحهم، فكانوا المستفيدين من نظام معمر القذافي، ومن حرب الإطاحة به، ومن الصراعات التي تلتها، مستفيدين من مركزية القرار، ثم من انهيار الدولة.

تعتبر مصراتة منطلق أغلب إسلاميي ليبيا من الإخوان والقاعدة، ومركز الميليشيات، وبوابة التدخل الخارجي في ليبيا، ومنها ينحدر أبرز الحاكمين في مؤسسات الدولة، والمتصرفين في القرار السياسي والمالي والاقتصادي، والمحرضين على استمرار الحرب إلى ما لا نهاية، والوالغين في دماء الليبيين، حتى تحولت إلى قوة احتلال داخلي، مدعومة بالدخيلين التركي والقطري، وباللوبيات الإقليمية والدولية ذات المصالح المالية البحتة.

مثلت مصراتة إلى وقت قريب العاصمة الاقتصادية للبلاد، وعنوانا للعمل والإبداع، لكن الدفع بها إلى أن تكون رأس الحربة لفائدة مشروع إخواني منبوذ، ومشروع جهوي انعزالي، جعلها معزولة عن جغرافيا البلاد الترابية والثقافية والاجتماعية

خلال تسع سنوات، شنت مصراتة حروبا على كل المدن والقبائل الليبية تقريبا، كونها المدينة التي انتصرت على النظام السابق، فلم يسلم من أذى ميليشياتها حتى أقرب الحلفاء إليها، ودخلت في صراع مع طرابلس وأحيائها، وخاضت حروب قسورة وفجر ليبيا، ودمرت تاورغاء، وغزت بني وليد، وخربت سرت، وهاجمت ورشفانة، واستبدت بالجنوب، ونشرت الإرهاب في الشرق، ولا تزال تسير على نفس المنهج، بروح المكابرة والاعتداد بالنفس والاعتقاد بأنها مدينة الله المختارة، والأجدر من غيرها بالهيمنة على البلاد والعباد، ووضع يدها على النفط والغاز والمعادن والصناعات والمصارف والاعتمادات.

تحولت مصراتة إلى ولاية تركية على الضفة الجنوبية للبحر المتوسط، وبات إعلام أردوغان ينعتها بقلعة أتراك ليبيا، ولا يخفي عدد من أبنائها أن أنقرة أو إسطنبول أقرب إليهم من بنغازي وسبها وحتى من طرابلس، وأن الجذور التركية أهم بالنسبة إليهم من الانتماء العربي، وبالطبع، لا يمكن التعميم، فمن بين أهل مصراتة من يرفضون ذلك بشدة، ولكن سلاح الميليشيات يجعلهم يكتفون بالصمت.

يعتبر مفتي الإرهاب الصادق الغرياني أن كل قتيل من أبناء المدينة هو وسام جديد لها، الحقيقة أن لا الغرياني ولا أيا من النافخين في كور المحرقة يرسل أبناءه إلى جبهات القتال، هؤلاء يستفيدون فقط من خراج الحرب ليرفعوا من حجم حساباتهم في المصارف الخارجية، وليساوموا على مصالحهم التي لا تتحقق إلا بالمزيد من الدماء، ولدى أغلبهم مساكن واستثمارات في دول عدة، وجنسيات مزدوجة، وجوازات سفر تفتح لهم أبواب العالم عندما تضيق بهم أرض ليبيا.

ما الذي يجعل أبناء مصراتة يضحون بأرواحهم ودمائهم اليوم في محاولتهم التصدي لتقدم الجيش الوطني لبسط نفوذ الدولة؟

الجواب أن خليطا غريبا يتم استعماله لإقناعهم بذلك، يتشكل من شعارات جهادية للمهووسين دينيا، مع شعارات ثورية تحت يافطة الدفاع عن المدينة المنتصرة في 17 فبراير 2011، وشعارات عنصرية تحت يافطة الانتماء الحضري ضد أغلب سكان البلاد من البدو الذين حكموا 42 عاما، أو ضد المنطقة الشرقية التي حكمت من خلال النظام الملكي، مع شعار "أنتم الأعلون" بدعم الأتراك والقطريين، وضرورة أن يحكموا ليبيا أو أن يحرقوها، واعتمادات مالية مجزية تصرف لأمراء الحرب، ولا يذهب منها للمقاتلين إلا الفتات.

مثلت مصراتة إلى وقت قريب العاصمة الاقتصادية والقلعة الصناعية للبلاد، وعنوانا للعمل والإبداع وتجميع الليبيين حول نموذجها في الاجتهاد، لكن الدفع بها إلى أن تكون رأس الحربة لفائدة مشروع إخواني منبوذ، ومشروع جهوي انعزالي، جعلها معزولة عن جغرافيا البلاد الترابية والثقافية والاجتماعية، ووضع كل صوت مخالف لأصوات دعاة الحرب، في خانة المرفوض والملفوظ، فلا مجال للعقل طالما أن من يعتقد أن أصحابه هم من يعادون منطقته، ولكن إلى متى؟

على شباب مصراتة أن ينتبه إلى أنه يخوض حربا بلا أفق، وأن مدينته باقية في ليبيا ولن تنتقل إلى تركيا، وأن من يدفعون به إلى حتفه إنما يجعلون منه جسرا لتحقيق أهدافهم وخدمة مصالحهم، وأن الجيش الذي يواجهونه هو جيش ليبيا، وعناصره من أبناء الشعب الليبي، وهم مصرون على كسب المعركة مهما طال المدى، وإن حقن دماء أبناء المدينة لأفضل وأجدى لبلادهم، ليكونوا أحياء لا موتى، وسواعد بناء لا معاول هدم.

تركيا وإسرائيل.. تجارة وأوهام

عبدالجليل معالي
كاتب تونسي

تزويد تركيا إسرائيل بمعدات طبية، في هذا الظرف الموسوم بالانشغال العالمي بمحاربة فايروس كورونا، ليس خبرا ملفتا، حتى وإن تداولته كل المواقع والصحف المهتمة بتركيا. ما أضاف للخبر مداه وأهميته وكثف من حساسيته السياسية هو هرولة ملفتة إلى التبرير. تبرير المساعدة التركية إلى إسرائيل مع التأكيد على تزعم تركيا جبهة "المقاومة".

موقع بلومبيرغ الأميركي نشر، الخميس، نقلا عن مسؤول تركي "كبير"، "أن تركيا تزود إسرائيل بمعدات وقاية شخصية، وأن أنقرة وافقت على بيع معدات طبية لإسرائيل لأسباب إنسانية".

وزير الصحة التركي فخرالدين قوجة، أكد صحة الأنباء التي تداولتها وسائل الإعلام بشأن "المساعدة" وأضاف أن وزارته تلقت من إسرائيل طلب المساعدة، موضحا أن حكومة بلاده ستلبي هذا الطلب من منظور إنساني بحت.

إبراهيم قالن، المتحدث باسم الرئاسة التركية، أدلى بدلوه في القضية وقال "تلقينا طلبا من إسرائيل لتزويدها بمستلزمات طبية، والشحنة ستكون جاهزة في غضون أيام".

من حق تركيا أن تساعد من تشاء متى رأت أن ذلك يخدم مصالحها أو يطور علاقاتها. القضية لا تحمل أي لبس أخلاقي أو سياسي سوى لدى المدافعين الإسلاميين عن تركيا. ومسارعة هؤلاء إلى تبرير "الفعلة" هي سعي لترميم أي خدش في السمعة التركية حتى وإن لم تره حكومة أنقرة أو لم تأبه له. الخبر يتخذ أهميته بمقارعته بما تدعيه تركيا بكونها تقود وتتزعم جبهة "المقاومة" الفلسطينية وأنها الداعم الأخير للقضية الفلسطينية.

"مرصد تفنيد الأكاذيب" وهو آلة دؤوبة لابتكار التبريرات أو للدفاع عن كل فعل تركي يثير الجدل، لم يعدم بدوره سبل اختلاق "الحجج والقرائن" لبيان حقيقة المساعدات التركية لإسرائيل، ضد ما عاينه (المرصد) من "تصيّد الأخبار عن تركيا وإخراجها من سياقاتها مع مزيد من التضليل والدس، بل الكذب أحيانا، للإساءة إلى تركيا".

المواقع الإخوانية قالت إن المساعدة التركية لإسرائيل مشروطة بإدخال المساعدات إلى قطاع غزة، بل إن المساعدات كانت خطة تركية "ذكية" لإجبار إسرائيل على السماح لتركيا بأن تساعد غزة. وذهبت كتابات إخوانية أخرى أبعد من هذا التأصيل بالقول إن الحكمة التركية اقتضت تقديم مساعدة إسرائيل في هذا الظرف، وقارنتها بشعارات أنظمة عربية ادعت أنها سترمي بإسرائيل في البحر.

التخبط التركي في تفسير أمر المساعدات، الذي بدأ بالقول إن الأمر هو محض اتفاق تجاري بين شركتين تركية وإسرائيلية، ثم ركن إلى اعتبار الأمر مساعدة إنسانية لا حضور للسياسة فيها، يمكن وصله بالتبريرات الإخوانية، التي تصر على أن الأمر "خطة تركية ذكية" لإيصال المساعدات إلى غزة، وهو تبرير عجزت السلطات التركية نفسها عن ابتكاره.

في عمق القصة علاقات وطيدة، سياسية واقتصادية، تجمع تركيا بإسرائيل، تتقاطع مع ادعاءات بتزعم أنقرة جبهة الصمود والتصدي، وتقدم أردوغان على أنه سليل السلاطين العثمانيين الذين رفضوا بيع فلسطين ومن الحكام القلة الذين يتجرؤون على مهاجمة الكيان الصهيوني في المحافل الدولية. مفيد التذكير هنا بازدهار حجم المبادلات التجارية بين تركيا وإسرائيل في السنوات الأخيرة، حيث بلغ حجم التبادل التجاري في عهد حزب العدالة والتنمية، أربعة أضعاف ما كان عليه من قبل.

تبيع تركيا لإسرائيل شتى أنواع السلع والبضائع، ويبيع أردوغان لمناصريه من الإخوان أوهام الخلافة واسترداد الأراضي المقدسة، ويصرخ أردوغان في كل محفل للتنديد بالكيان الصهيوني الغاصب ويصفه بالكيان الإرهابي، وبين التبادل التجاري المزدهر، وتجارة الأوهام المزدهرة أيضا، يقف المبررون الإسلاميون على أهبة الاستعداد لاستخراج المبررات من أجل الذود عن البيت الإسلامي في تركيا، وجعله نقيا خاليا من كل أدران التطبيع التي لا يرونها إلا في عواصم أخرى.